

مغربي يقدم قراءة فريدة في العقل الداعشي

محمد سيبل

مفكر عقلاي يراهن على الحدأة لتطويق التخلف

محمد ماموني العلوي
صحافي مغربي

الجدال الذي لا يزال قائماً بين الحدائين والمحافظين حول دور التراث، يقول سيبل إنه لعب دوراً في فرملة التقدم والتطور نحو آفاق أكثر رحابة في الفكر والسياسة والاجتماع.

الذي شرّح نتائج النكوص للوراء ومنها انتشار الفكر الغلامي المتطرف. ولذلك كله فإن لسبيلاً نظرية خاصة في ما يتعلق بداعش، فهذا المكون زاوج بين منتجات الحدأة في شقها التقني والتراثي الغارق في محافظته من الجانب العنيف المتطرف، موضحاً تزواج الاثنين بعدما اندمج ضباط الجيش العراقي الذي حله بول بريمر بعد غزو البلد في العام 2003، كانوا متسلحين إضافة إلى الجانب العسكري بتكوين ديني، وبمعايير منشقة عن القاعدة.

وتشكل الجسم الاجتماعي كله وتنظم عبر محاور ونويات ومراكز معينة، وهي أيضاً علاقات وإجراءات وممارسات وليست كياناً جوهرياً ملموساً. يتعشق التقليد ويدافع عن نفسه بل يقدم نفسه كخط مقاومة أخير ضد التطور الذي يقود إلى الاستلحاق والتفكك لدرجة تسمح بالقول إن المجتمعات العربية الإسلامية تعيش في نفس الوقت ديناميتين تاريخيتين موضوعيتين وقويتين: دينامية التحديث ودينامية التقلد، والأخيرة تعبر عن نفسها بشكل قوي في كل من المجال السياسي والسلوكي والأخلاقي والثقافي، لدرجة تسمح بالقول إنها تمثل سلطاً مضادة لسلط التحديث بمؤسساته وقيمه، سلط هي اليوم من أقوى السلط في المجتمعات العربية، إنها سلط تخشاهما المثقفون العصريون.

وإذا كان الالتقاء بين سلطتي التقليد والتحديث جد معقدة ويحتاج إلى تفكيك البنية المجتمعية على عدة مستويات، فالأمر عند سيبل كثيراً ما يتلبس التقليد لبوس الحدأة ليتمكن من التكيف والاستمرار بينما تتلبس الحدأة بالتقليد أحياناً لتتمكن من أن تنفذ وتفرض نفسها. وذلك بين منظومي القيم، وفي المستوى الإدراكي والسلوكي الفردي، في المعرفة، في الاقتصاد وفي السياسة.

وبالإمكان رصد ذلك التزاوج في المجال السياسي كون هذا الأخير قابلاً للقياس الكمي والنوعي، وهنا يعطينا سيبل مثلاً على تمازج مصدري للشرعية السياسية: الشرعية التقليدية المستمدة من الماضي، والتراث والأجداد، وشرعية المؤسسة العصرية القائمة على أن الشعب هو مصدر السلط، وهو على الرغم من كل مظاهر التعايش تمازج صراعي في عمقه، فالصراع بين المنظومتين صراع معقد وشرس بل قاتل. وككل قطبين متعارضين عندما تصطدم الحدأة بمنظومة تقليدية تتولد عنها تمزقات وتخلق تشوهات ذهنية ومعرفية وسلوكية ومؤسسية كبيرة، وتخلق حالة فصام وجداني ومعرفي ووجودي معمم، والسبب كما يراه محمد سيبل، اختلاف وصلابة المنظومتين معاً.

البنية المتحركة للتطرف

التقليد، حسب سيبل، صلابته وأساليبه في المقاومة والصمود أمام الانتشار الكاسح للحدأة، وطرقه في التكيف معها ومحاولة احتوائها، كما أن للحدأة قدراتها الخاصة على اكتساح وتفكيك المنظومات التقليدية، وأساليبها في ترويض التقليد، ومحاولة احتوائها أو استدماجه أو إفراغه من محتواه. ومن هذه المنطلقات الصلبة فلسفة محمد سيبل،

واندلاع الثورة الإيرانية دخل العرب في حركة غيبية تاريخية مناهضة لمرحلة الحدأة، فكان هذه المجتمعات التقليدية وهذه الثقافات التقليدية بحسب رأي الفيلسوف المغربي، تدافع عن نفسها، وتنتقد الحدأة محاولة التأكيد بانها ليست طريقاً سالكا وأنها لا تقود إلى حل المشاكل.

سلطات متشابكة

كثيراً ما نسمع تلميحات عن قوة وسلطة التحديث في مجتمعات تعطي الأولوية لمتجدد مركز التقليد والحنين إلى الماضي في الفهم والتحليل والقياس والاعتدال، لهذا فالسلطة عند سيبل موسعة ومتشابكة ولا تقتصر فقط على السلط السياسية في شقها الدولي والمؤسسات الرديفة، بل تتشابك معها في الثقافة والفن والرياضة والسوق والمسجد وغيرها، سلط متعددة تتوحد لأجل مهمة الضبط والسيطرة والعقولة والمعوية.

قالوافية التي تحدد الفهم والمعنى عند هذا الفيلسوف المغربي، دفعته إلى القول إن المجتمع هو مجال قوي وصراع وليس جنة قائمة على التوادم والتعاطف والتعاقد، إنه شبكة من القوى تتصارع حول السلط والثروة والحظوة باستخدام جملة استراتيجيات، بالتالي فالسلطة سلسلة شبكات تخترق

الحدأة مرتبطة بثقافة المجتمع ولا نهضة دون تفكيك عناصر الموروث الثقافي وإعادة تركيبه بشكل متوازن.

وفي رأي سيبل فإن المغاربة في تعاطيهم مع الحدأة تميزوا بالكثير من العقلانية وأحياناً بالراديكالية، وهو ما اختلفوا فيه عن الكثير من المحاولات في دول عربية أخرى. وقمة علاقة حذرة في دول عربية أخرى، بين التحديث والحدأة كبنية فكرية جامعة للقسمات المشتركة في المعرفة، في فهم الإنسان، في تصور الطبيعة، وفي التاريخ، ومنظورها إليها من خلال منظور أقرب ما يكون إلى المنظور البنوي، في حين يكتسي مفهوم التحديث مدلولاً جديداً وتاريخياً منذ البداية من حيث إنه لا يتنير إلى القسمات المشتركة بقدر ما يشير إلى الدينامية التي تتحكم هذه المستويات، وإلى طابعها التحولي.

هناك سبب يجعلنا نستمر في الاعتقاد بأن السقوط في حفرة الماضي، سيجعلنا أسوأ، بالتالي فالصراع بين التقليد والحدأة في العالم العربي من الماء إلى الماء سيكون طويلاً وحاداً، والانتقال من الحالة الأولى إلى الأخرى لن يكون بذلك اليسر. وسيبل يعي ذلك جيداً، كقارئ جيد للفلسفة السياسية، فطريق الانتقال مليء بالصدمات الكوسمولوجية، والجراح البيولوجية أو الخدوش السيكلوجية للإنسان، وأيضاً بالتمزقات العقيدة لأنه يمر عبر مطهر العقل الحديث والنقد الحديث.

يرى سيبل أن كل مجتمع معرض طبيعياً لإتالة التطور والتحديث لكنه يفرز داخلياً عوائق في طريقه، أو يبدي نوعاً من المقاومة، سواء كانت عوائق موضوعية خارجية ليست بإرادة الأفراد أو عوائق ذاتية تنحو نحو رفض التطور. وهو يدرك أن الحدأة ليس بمقدورها أن تحمو بجرعة قلم ظلال الماضي وميتافيزيقا التراث، كما أن التقليد لا يستطيع صد جاذبية الحدأة وحركتها المتدفقة التي تغمر القيم والسلوك. فمنذ سبعينات القرن الماضي، وتحديداً منذ هزيمة 67

الإنسان في بعده الأنطولوجي الدائم القلق والتساؤل. لغة كتابات سيبل مختارة بعناية تفصح عن المكون في فكر الرجل بل ليس لكنها حمالة أوجه وتاويلات كما حددها مهتمون بنتائج سيبل صاحب العديد من المؤلفات القيصة والذي نظر إلى الفلسفة كمختبر فكري ودلالي ولغوي حفر من خلالها طريقاً نحو التنوير والحدأة والنظر، فأبدع "مدارات الحدأة"، و"الأصولية والحدأة"، و"دفاعاً عن العقل والحدأة"، و"مخاضات الحدأة"، ليكون العامل المشترك بين هذه الإصدارات هو مفهوم الحدأة وتطورها.

إذا تناولنا الفلسفة بكونها الباب المنفتح نحو الحدأة، فهناك مدرستان فلسفتان حديثتان في العالم العربي، التونسية والمغربية، وما يميز كليهما حسب رأي سيبل هو أن المدرسة الفلسفية التونسية متميزة بعطاءاتها وشموليتها وهي مرتبطة بمشروع التحديث الذي عاشته الدولة التونسية ورعته بشكل مباشر أو غير مباشر، أما المدرسة الفلسفية المغربية فعصامية وتكونت بمجهودات فردية وتلقائية.

والحدأة كما فهمها المغربية تأتي في قلب الإنتاج، الذي هو استجابة مباشرة للتاريخ وللمتطلبات الصريحة في برنامج الحركة الوطنية بشقيها الكلاسيكي والتحديثي المرتبط بالقوى التقدمية أو اليسارية، حيث أصبح الاختيار التحديثي اختياراً وطنياً، كما أنها تغذي من العلوم الإنسانية ومن تحولاتها التي عرفتها هذه الأخيرة، ثم رغبة الفلسفة المغربية في السباقات الكونية، أي الالتحاق بالتاريخ الكوني، فالحدأة "المداهمة" لا تقدم نفسها كحزمة حلول وحقايب جاهزة، بل تطرح نفسها كاشكالية متعددة الجوانب، وتدخل مع التقليد في تناوبات وتصارعات.

ومنذ نشأتها ظلت الفلسفة المغربية تفكيراً في الواقع الحاضر، كما يقول سيبل، أي في دينامية التاريخ، وهو تركيز لإكراه، يعكس سلطة الواقع وقوة الحاضر ومتطلباته وضروراته تستجيب لهذا الإكراه وتضعه تحت مظهر الفكر، و"يتابع" الانتشغال بالفلسفة ومفاهيمها ليس كتزيف فكري، يجعلنا في أراجنا العاجية كما يقال، بل كهم ومشغلة يومية، بما يجعلها تفكيراً في الواقع، متناغمة مع الفيلسوف الألماني هيغل في كون الفلسفة هي الصورة الفكرية عن الواقع واللحظة التاريخية.

وعلى هذا الأساس يذكر الباحث في الفلسفة محمد الشيك بالدور الذي لعبه سيبل إلى جانب غيره من المفكرين، في توطيد ثقافة مغربية حديثة تستمد مقوماتها من الفلسفة الغربية، لكن دون أن تنتهي إلى أفقها.

بين التحديث والحدأة

ظل الجدال قائماً بين الحدائين والمحافظين حول دور التراث في فرملة التقدم والتطور نحو آفاق أكثر رحابة في الفكر والسياسة والاجتماع، ويعتبر سيبل من الحدائين الواقعيين الذين لا يرفضون التراث جملة وتفصيلاً ولا يقطع مع كل مكونات ذلك التراث. ورهانه على

أفكاره وأراؤه في الحدأة والتنوير مستجدة. فما تعرفه الساحة الثقافية المغربية من ترهل على مستوى الإنتاج الفكري الرصين، وتوسع قاعدة المنتصرين ضد الأصوات المناهضة بالإصلاح، والترويج المستمر للفكر المتطرف وما يقابله من ضعف في البرامج التنويرية الجادة والقريبة من هموم المواطن، تجعل العودة الدائمة إلى الفكر الراسخ حاجة استراتيجية للمرور الآمن نحو المستقبل دون اصطدام قاتل بين التقليد والتحديث. الفيلسوف محمد سيبل، هو الفيلسوف السياسي يساري ومنهجه الفلسفي ديكراتي. ناضل سيبل في صفوف الاتحاد العام لطلبة المغرب، ولم يمه علاقته مع عالم السياسة في جانبها المتعلق بمجاله البحثي حيث اهتم بالتحديث والعقلانية في نشاطه الفلسفي كمطلب عزيز للفكر الإنساني في زمن التحولات القيمة والتقنية.

مدارات الأصولية

راهن على الفكر الحدائي لتطويق الفكر التقليدي والنهوض بالمغرب ثقافياً ولفتح الأبواب أمامه كي يجد لنفسه مكاناً في الحضارة الحديثة، فهو كما أكد محمد بن عيسى، أمين عام منتدى أصيلة، كان أحد السباقين إلى إدماج الفلسفة وإبراز أهميتها لفهم مكونات وإشكاليات المجتمع المغربي من الداخل، ما أفضى بهم إلى استيعاب وفهم طبيعة القيم التي تتحكم في مسار ينشد التقدم والتعاظم مع قضايا العصر.



محمد بن عيسى أمين عام منتدى أصيلة يقول إن سيبل كان أحد السباقين إلى إدماج الفلسفة وإبراز أهميتها لفهم مكونات وإشكاليات المجتمع المغربي من الداخل



كانت لديه الجرأة الفكرية الكافية للربط ما بين الثقافة في شموليتها والنضال من أجل التحرر من الخرافة والنكوص، معتمداً آجديات التحديث والديمقراطية لأجل التقدم، لهذا يصعب عليك تصنيفه فهو الفيلسوف والمفكر والمثقف المنهك في قضايا المجتمع، قد تدخل في مناهات التأويل غير الصحي إذا لم تكن ملماً ببعض الأساسيات في فكر الرجل ومرجعيات مشروعه الحدائي التنويري، ولا يمكن حصر تفكيره في مفردة الحدأة منفصلة عن معيش